خلافاً لتقوي العصر الوسيط:

الصليب،...
هو قوة الحياة التي أخذناها في المعمودية،
وفي مسحة الميرون

قراءة وتأصيل لما نشره دكتور. حنين عبد المسيح

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٠٩

www.coptology.org

قرأت ما نشره د. حنين عبد المسيح، عن عبادة الأصنام في الكنيسة الأرثوذكسية.

وهو في الحقيقة مثله مثل ألوف من الأقباط الضحايا الأبرياء الذين وجدوا أنفسهم بين عشية وضحاها يصارعون الحياة والفكر في مرحلة دقيقة من التاريخ شكلتها محاور ثلاثة. فهو مثل غيره من الأغلبية الساحقة من الأقباط الذين شربوا حتى الثمالة من مستنقع العصر الوسيط الأوربي، من ناحية. ومن ناحية أخرى رزحوا تحت وطأة رواسب الثقافة المصرية التي تشرب كل يوم من راديكالية التوحيد الإسلامي، أضف إلى ذلك ما ترسب – على مدى قرون طويلة - في وجدان الأقباط من أوطاخية عدَّلت وطوَّرت في شكلها الأخير السائد في أدبيات العصر الوسيط القبطي.

ليس غريباً أن يلتقي الإسلام مع النسطورية، ومن قبلها الأب الروحي الآريوسية، ولا مع المنوفيزية (الأوطاخية)، فالكل لدية اتجاه واحد، هو إلغاء الإنسان والكون، والفصل التام والمطلق بين ما هو إلهي وما هو إنساني.

ولم يكن غريباً أن تأتى حركة الإصلاح في صورتها المتطرفة علي يد زوينجلى وليس علي يد لوثر براديكالية تلغى وحدة السماء والأرض في المسيح (أفسس ١: ١٠)، وإنكار كل مستوي للشركة بين الثالوث والبشر في الابن له المجد وفي الروح القدس. ولم تجد تلك الدعوة المضادة - لما ساد في العصر الوسيط

الأوربي – بقيادة الكنيسة الرومانية – التي لم تحارب الممارسات الشعبية السائدة في تلك الفترة – إلاَّ ذات الحل القديم الذي نادت به هرطقة الغنوصية، أي البتر الكامل والتام لكل ما جاء من التاريخ القديم، العهد القديم، الجسد الإنساني، الكون المنظور، هرباً من مسئولية النمو الشاق والصاعد إلي صورة الله في يسوع المسيح الإله المتجسد.

ما هو جوهر المشكلة في فكر د. حنين عبد المسيح؟

أولاً: هو ضحية التعليم السائد الذي لازال يتمسك بكل شراسة بتقوى العصر الوسيط.

أمَّا رؤية البخور يُقدَّم للصليب، والأيقونات، الرهبنة...الخ علي النحو الذي قدَّمه، فليست جديدة بل سبق أن عُرضت في الجيل السابق علينا، والجيل المعاصر لنا. فقد عرضها بنيامين شنيدر في كتاب "ريحانة النفوس"، وحارب فيها بشراسة طقوس وعقائد الكنيسة القبطية الأرثوذكسية التي خرجت جريحة تئن تحت وطأة نير العصر العثماني وقبله العباسي فالأموي؛ لأن مصر – كما قال أستاذنا الكبير لطفي السيد – لم يحكمها مصري منذ فتح مصر علي يد الإسكندر الأكبر حتى ثورة يوليو ١٩٥٢، فقد كانت مزرعة روما، ثم مزرعة دمشق، ومزرعة بغداد، ثم إسطنبول، ولندن. فالمحاصيل الزراعية، والخراج، بل حتى طين وادي النيل حُمِل إلي لندن. كل هذا انعكس على السياق العام الذي عاش فيه الأقباط، وشكل إطاراً عاماً لما تخلف عن المحاور الثلاثة التي أشرنا إليها.

لكن ما يهمنا أن نشير إليه بكل قوة أنه لا يمكن مع فترات السحق والقتل وتدمير العقل، وسيطرة البطش علي الثقافة أن ينمو تيار ثقافي يقبل تجسد ابن الله، ولا نغالي إن قلنا إن التجسد بكل ما يعبِّر عنه من معاني ما زال بعيداً عن الوعي الكنسي المعاصر، وإن كان القمص متى المسكين قد أفلت منه؛ لأن الله لا يترك نفسه بلا شهود، مثلما أفلت منه الأنبا بولس البوشى الأسقف الوحيد الذي أستوعب روح الآباء في العصر الوسيط.

راديكالية الإلغاء

ما الذي يُلغى الآخر؟ ونقصد بالآخر هنا الله.

ليس الإلغاء مثل النفي؛ لأنه إذا كانت عبارة "لا إله إلاَّ الله" تعبر عن نفى لكل صور وأشكال الإلوهة، فهذا جيد ومطلوب، ولكن دون الانزلاق إلى الإلغاء. لأن النفي يعترف ضمنياً بما يُنفى، أمَّا الإلغاء، فهو ليس مجرد إنكار، بل تدمير وقلع لما هو موجود، ويصبح كل ما هو كائن كأن لا وجود له.

ولكن التجسد جمع معاً الآخر والأخر، الله والإنسان في شخصٍ واحد، هو ربنا يسوع المسيح. ووحد المسيح بين الإلوهة والإنسان في إعلان جديد، هو البذل والمحبة التي لا تعرف الحدود، بما فيها حدّ الموت نفسه. ورفع الإنسان من عابدٍ للأصنام إلي رتبة الإلوهة والتبني والخلود بمجد القيامة وسكنى الروح القدس.

ولكن تلك الدعوي ببشارة الحياة، لم تجد المجتمع الإنساني ولا حتى الثقافة التي تقبل أن يكون الإنسان مساوياً لمجد وشرف وكرامة ابن الله. فقد كانت هذه الدعوي هدماً لهرم السلطة في الإمبراطورية الرومانية، وكان دفاع القديس أثناسيوس

عن قرار مجمع نقية ٣٢٥م يؤكد هذا الصدام العنيف. وكان ما أزعج الإمبراطـور قسطنطين هو "الواحد مع الآب في الجوهر Homo-ousios"؛ لان هذا لا يجعل للسلطة المطلقة مكاناً ولا يعطى لها شرعية إلهية للحكم القائم علي سلطة مطلقـة، فقد أصبح كل إنسان تحت حكم الإمبراطور = (يساوي) المسـيح ابـن الله؛ لان المسيح جاء ليكون "بكراً بين إخوة كثيرين"، بل تأمل شدة وقع كلمات الرسـول "وارثون لله ووارثون مع المسيح" (رو ٨: ١٧). وبالتالي كانت القضية المطروحـة هي كيف يمكن التعامل مع الآخر الذي له رأس في جوهر اللاهوت ويحمـل ذات الطبيعة الإنسانية، أي المسيح؟

ولم يكن ارتداد يوليانوس الجاحد، وهو الـذي تـربى وعـاش في بـلاط الإمبراطور قسطنطين عن دين يسوع المسيح غريباً بالمرة، فقد رأي بعينيه غـروب الثقافة اليونانية – الرومانية على يد المسيحية، ولذلك حارب المسـيحيين، وأطلـق عليهم اسم "الجليليين"، أي أتباع يسوع الذي من الجليل"، ومنعهم مـن تـدريس الآداب اليونانية القديمة، تلك التي كتبها هوميروس وغيره. ولو عاش يوليانوس عشر سنوات فقط لشهدت الإمبراطورية أكبر حركة ارتداد واضـطهاد؛ لان يوليـانوس استوعب قصور وعجز الوسائل التي مُورست تحت حكم دقلديانوس وغيره.

بل لقد كان غريباً أن يعاني اليهود تحت حكم هادريـان، ومنـع ممارسـة "الختان" بقوة القانون، وصودرت الأملاك تماماً كما حدث مع المسيحيين؛ لأن روما رأت أن الولاء لإله اليهود يزعزع سلطان الإمبراطور ويفتح باب الثورة، تماماً كما

رأي نسل قسطنطين أن الإيمان بإله واحد متجسد وثالوث يزعزع مكانة السلطة المطلقة؛ لأن الدعوة ترفع من شأن الإنسان.

وهكذا من تفاعلات ثقافة تقدِّس السلطة المطلقة، وحضارة قامت علي نشر السلام الروماني بالقوة والخضوع لسلطان روما، وفلسفة لا تقبل مطلقاً أن يسكن الله ويتحد بالإنسان وأن يفتح الباب لشركة في الحياة الإلهية، واستناداً على بعض نصوص الكتاب المقدس، نص من هنا (أمثال ٨: ٢٢)[١] ونص من هناك (يوحنا ١٧: ٣)[٢] وجدوا ما يفتح الباب لهدم دعوة الشركة في الحياة الإلهية.

ولم يأتِ عصر الأمويين – العباسيين – المماليك –العثمانيين – بثقافة إنسانية تعطى للإنسان أي قيمة. ألم يسمع أحمد عرابي كلمة تلخص الموقف كله "أنتم عبيد إحساناتنا" من فم الخديوي سلطان وحاكم مصر المطلق؟

أمام السلطان المطلق "ثقافياً" لا مجال بالمرة لدعوي الإله المتجسد إلاَّ عند الشهداء والأبطال، أمَّا عامة الناس، فالحرص علي الحياة مهما كان نوع هذه الحياة لا يفارق الإنسان ولا يقاومه المجتمع نفسه.

راديكالية إلغاء التجسد

نلتقي عبر التاريخ بكثير من المدارس الراديكالية وليدة الثقافة:

- الدوستية: أي تلك التي اعتبرت جسد وإنسانية الرب يسوع خيالاً.

---

(١) "اَلرَّبُّ قَنَانِي أَوَّلَ طَرِيقِهِ مِنْ قَبْلِ أَعْمَالِهِ مُنْذُ الْقِدَمِ".

(٢) " أَنْتَ الإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ".

– الآريوسية: التي فزعت من التنازل الإلهي وتواضع ومحبة الله للبشر، وبالرغم من أنها جعلت من يسوع نبياً، إلاَّ أنها لم تمتنع عن استخدام ألقاب مثل "الرب" و "الإله" و "الله" باعتبارها ألقاباً "شرفية" وردت في أسفار العهد الجديد.

– الأبولينارية: التي رأت في العقل الإنساني مصدر الخيال وجموح الفكر المحرك، بل ينبوع الشر ورفضت أن يكون ليسوع المسيح عقلاً إنسانياً.

– النسطورية: التي عجزت عن أن تري أن الجنين المولود من الأم العذراء هو الله وجاءت لتقول قبل غيرها: "الله لم يلد ولم يولد"، وتلك هي عبارة نسطور نفسه.

– الأوطاخية: وهي أكثر الكل راديكالية، فهي تلغى الناسوت كله، وهو حل الغنوصية، لا داع بالمرة للجسد، فقد ذاب مثل قطرة عسل (وليس الخل) في بحر اللاهوت.

لكن تلك المدارس كانت تصطدم بالسرائر الكنسية، بالكنيسة جسد المسيح الحي، بالقديسين الأحياء والراقدين بيسوع (١ تسالونيكى ٤: ١٤)[١].

ويمتد خط الفصل، المسيح في السماء لا صلة له بالأرض، ورافد هذه الفكرة غير المسيحية هو أن الأسقف أو القس ينوب عنه ويمثله، هكذا تم فصل "الرأس أي المسيح عن الجسد أي الكنيسة". وإذا عجز الفصل عن ذلك، تحولت السرائر الكنسية: المعمودية، الميرون، الإفخارستيا، إلي رموز لما حدث في الماضي، وأصبحت

(١) " لأَنَّهُ إِنْ كُنَّا نُؤْمِنُ أَنَّ يَسُوعَ مَاتَ وَقَامَ، فَكَذلِكَ الرَّاقِدُونَ بِيَسُوعَ سَيُحْضِرُهُمُ اللهُ أَيْضاً مَعَهُ".

بالتالي مجرد علامات أو رموز تُنهض الذاكرة، أمَّا بقاء الشركة في حياة المسيح كلها بالروح القدس، فهو لا يحول السرائر الكنسية إلي رموز، بل استعلان المحبة الإلهية.

إن ما غاب من الوعي هو أن التجسد هو اتحاد اللاهوت بالناسوت بدون وساطة "الزمان" وبدون وساطة شريعة موسى، وبدون أي وساطة أخري، وبالتالي فلا وجود لرموز وعلامات تدل علي ما حدث، بل رموز وعلامات تدل علي:

- ما هو حادث الآن، أمس واليوم وغداً.
- علي ما يُعطى وهو الشركة.

تلك هي أساسات الممارسات الكنيسة كلها من عقائد وطقوس (ترتيب)، فهي تعلن للإنسان ما يناله، وتؤكد بقاء ما أخذه.

ما أعظم الفرق بين أن يكون الصليب مجرد علامة تُمارس بحركة اليد، وبين أن يكون الصليب هو ختم المعمودية والميرون، وبالتالي يكون علامةً على دخولنا إلي أعماق الشركة في محبة المسيح الفائقة. أليس تحريك اليد من الشمال إلي اليمين، هو انتقالنا من الدينونة والموت إلي الحياة الأبدية؟ أليس تحريك اليد من اليمين إلي الشمال حسب طقس (ترتيب) الروم هو سكني الروح القدس في القلب؟ أليس هذا هو الجانب السري في الحياة الدائمة التي لا انقطاع فيها حتى بالموت البيولوجي؟ ولكن إن تحول الصليب إلي علامة خارجية لا تنبع من قلب الإنسان، ومن قوة وعمل الروح القدس، فإن الطقس يفقد علاقته بالسرائر، ويغري السذج علي الهجوم عليه.

وماذا عن البخور؟

الصلبان من المعادن والأخشاب وغيرها، ليست في جوهرها قطع فنية وأشياء تُقتنى. كانت قديماً توضع علي أجساد الشهداء قبل استعمالها؛ لأن الشهيد هو تجسد حقيقي في اللحم والدم لصليب يسوع نفسه. وكانت قديما توضع حول العنق بعد المعمودية وليس قبلها، لكي يحمل كل مسيحي ختم الانضمام إلي الكنيسة. وكانت قديما – حسب رؤية معلمي الكنيسة – الاحتفال اليومي لكل مسيحي بالمصالحة مع الله ومع الكون ومع غيره من البشر. حتى في العصر الوسيط كتب أسقف بابليون الأنبا يوحنا يقول "كيف ترشم نفسك بعلامة الصليب وتبغض أخيك أو تكرهه؟".

ولكن يبدو أن هذه الرؤيا أصبحت غريبة عن الثقافة السائدة في أيامنا. وقوام هذه الرؤيا هي:

– إن الكون كله الذي يتمخض الآن في مخاض الميلاد نحو الحياة الأبدية وفداء الجسد بالقيامة (رو ٨: ٢٢)، هو الكون الذي "يشرب من نهر النعمة الإلهية من الآب بالابن في الروح القدس".

– كما أن المياه تدخل شريكا من الكون في ميلادنا.

– وكذلك الزيت كمسحة من شجرة الزيتون مع أطياب لها رائحة لا تفسد، مؤكده لنا أن الجسد مُسح بعدم الفساد في يسوع.

– أمَّا البخور فقد غاب عن الوعي المعاصر أن القداسات وكل "ترتيب"، أي طقوس الكنيسة، هو وليمة العريس السمائي التي تجمع كل المفديِّين الذين رحلوا والذين لا زالوا علي قيد الحياة. حيث يجلس الرب علي رأس المائدة وعن يمينه الملكة

وعن يساره المدعوين وحول المائدة الملائكة والشعب. هذا هو طقس أو ترتيب جسد المسيح الكنيسة. ويُقدم البخور لكل هؤلاء وللشعب الحاضر الشريك أو الشركاء في وليمة المسيح له المجد. الكل يُقدَّم له البخور؛ لان الكون المادي المنظور لم يُستبعد من الفداء؛ ولأن ما هو **مادي** هو في ناسوت الرب نفسه، وقد تجلى بالنور الأزلي غير المخلوق، ولأن هذا ليس قاصراً علي الرب وحده بل يجمع كل "أبناء الله المتفرقين إلي واحد" (يوحنا ١١: ٥٢).

فهل يُقدم البخور للصلبان والأيقونات؟

إن الدفاع من العهد القديم هو دفاع باطل مهما بدأ مغرياً للقارئ. وإنما الدفاع الأرثوذكسي الحقيقي هو أن "الكلمة صار جسداً وسكن بيننا"؛ لكي يقدِّس الكل: الإنسان والكون بكل ما فيه، وأن نقدم الكون بكل ما فيه لله؛ لأننا أصلاً خُلقنا آلهةً تُقدِّم الكون لله حسب كلمات المزمور الثامن[١]. وعندما غابت الهوسات والتسبحة السنوية من الوعي المعاصر لم ندرك أن المسيح يتجلى في الكون، فهو "ينفخ في الأشجار حتى تزهر"، وكل الخليقة تشترك في ليتورجية كونية، ولذلك صارت الصلبان والإيقونات والبخور والقداسات، وحدة واحدة إلهية – إنسانية، رأسها المسيح. وصارت المادة تلمع بالإستعلان الإلهي ، ليس من تلقاء ذاتها، ولا لأننا نراها بعين الخيال البشري، وإنما لأن الحقيقة الكامنة فينا، الحقيقة الأبدية التي

---

(١) "أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الأَرْضِ حَيْثُ جَعَلْتَ جَلاَلَكَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ! مِنْ أَفْوَاهِ الأَطْفَالِ وَالرُّضَّعِ أَسَّسْتَ حَمْداً بِسَبَبِ أَضْدَادِكَ لِتَسْكِيتِ عَدُوٍّ وَمُنْتَقِمٍ. إِذَا أَرَى سَمَاوَاتِكَ عَمَلَ أَصَابِعِكَ الْقَمَرَ وَالنُّجُومَ الَّتِي كَوَّنْتَهَا. فَمَنْ هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى تَذْكُرَهُ وَابْنُ آدَمَ حَتَّى تَفْتَقِدَهُ!. وَتَنْقُصَهُ قَلِيلاً عَنِ الْمَلاَئِكَةِ وَبِمَجْدٍ وَبَهَاءٍ تُكَلِّلُهُ. تُسَلِّطُهُ عَلَى أَعْمَالِ يَدَيْكَ. جَعَلْتَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ. الْغَنَمَ وَالْبَقَرَ جَمِيعاً وَبَهَائِمَ الْبَرِّ أَيْضاً. وَطُيُورَ السَّمَاءِ وَسَمَكَ الْبَحْرِ السَّالِكَ فِي سُبُلِ الْمِيَاهِ. أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الأَرْضِ"

أخذناها في السرائر، لا تختلف عن ما هو كائن في الكون الصغير، أي كون الكنيسة الذي هو "خميرة الملكوت" المطلوب منها أن تخمر العجين كله. الصلبان مهما كان نوعها، والبخور، والمذبح، ليست أشياء منفصلة عن الحقيقة التي أخـذناها والـتي نعيشها. عندما هجرنا اللغة القبطية، غاب عنا أن الميرون له اسم آخر هو ذات أسم البخور ⲡⲓⲥ̀ⲑⲟⲓⲛⲟⲩϥⲓ وهو ذات اسم ذبيحة الصليب، وهو اسم من أسماء الصلاة، الكل يشترك في مجد المسيح، مجد عدم الفساد، وفى التقديم والبذل.

كيف تم تفكيك الكنيسة في عصرنا؟

لا أريد أن أخوض في عرض التهكم والسخرية، بل والشتائم أحيانـاً الـتي انهالت علي القمص متى المسكين، بخصوص موضوع الكنيسة، فهذا حديث آخـر يطول، ولكننا لن نخوض فيه لأنه لا يخدم في النهاية إلاَّ بقاء تلك النار التي تقضـى علي ما تبقى من حياة الكنيسة. لكن إذا حاولنا تحليل تعليم واحد مـن التعـاليم السائدة في عصرنا وهو أن المسيح الرب دفع دمه ثمناً لخطايانا، فما هي تداعيات هذا التعليم الوافد إلينا من العصر الوسيط الأوربي؟

١- وُضع الصليب خارج الحياة الإنسانية كما نحياها الآن، فهذا حـدث تم علي مستوي علاقة الآب بالابن دون أن يمس الحياة الإنسانية في داخلـها. ويجـرد الصليب من كونه علامة الانتصار وسحق الموت، ويصبح أداة الانتقام أو التشـفي وليس علامة المصالحة. كما ينـزعه عن الحياة اليومية، فلا علاقة بين المعاناة اليومية الروحية أو الاجتماعية والمصلوب يسوع المسيح.

٢- يفصل بين الصليب والقيامة ويحول الصليب إلى شيء، أي يحول شخص المصلوب أقنوم الله الكلمة إلي ثمن، في حين أن الثمن شيء آخر غير الشخص، وهكذا يعود بنا إلي أفظع ما تصنعه الخطية، وهو تحول الكائن إلي شيء.

٣- هل بعد أن دفع المسيح يسوع الثمن يصبح للإفخارستيا أي قيمة؟ وهل يمكن أن نقول إن الدم في الكأس هو عهد الرب الجديد، بعد أن دُفع للآب؟!

وهكذا، مَن ذا الذي يرشم الصليب أو يقبِّله، إذا كان شيئاً غريباً لا جذور له في الحياة الشخصية، بل وكفَّ عن أن يكون صفةً شخصيةً ليسوع المسيح: "يسوع الناصري المصلوب قد قام" (مرقس ١٦: ٦).

عذر ولا عذر

إنني اعذر د. حنين عبد المسيح، ولكني لا أعذر بالمرة الذين جلسوا علي كراسي المعلمين ينشرون تقوى زائفة تهدم السرائر وتحارب الثالوث، إذ تحوله إلي صفات ذاتية أو جوهرية، وتسخر من الكنيسة جسد المسيح، وتنكر سكنى الروح القدس، فتفصل الكنيسة كلها عن ينبوع الحياة الإلهية، وتمارس سر المعمودية في سرعة طقس "أحد التناصير" بلا إعداد وبلا تعليم لتدور عجلة الطقوس بلا مضمون روحي عقائدي آبائي، لكي يولد جيل يعيش كل جوانب الإلغاء في ثقافة شبه إسلامية تطرفت، فتحول النفي إلي إلغاء[١].

---

(١) رغم أن هذه الثقافة أنجبت جلال الدين الرومي – الحلاج – أبو اليزيد البسطامي – رابعة العدوية – ابن عربي – ابن الفارض وغيرهم من عظماء الحياة الروحية في الإسلام، إلاَّ أنه تم فرض ستار من التعتيم على معظمهم لأسباب معروفة، طبعاً لا سيما "الحلاج" الذي يثير اسمه غضب الكثيرين من دعاة الإلغاء عند المسلمين.

عندما شرحوا طقوس الكنيسة علي أنها ترتيب، وأن كل جماعة تحتـــاج إلي نظام يوحد العبادة، كان هذا هو ربع الحقيقة، أما الباقي فهو:

- أنها ترتيبٌ يقود إلي غاية.
- ترتيب موازي للحياة الشخصية التي نالت التجديد في السرائر.
- ترتيب يقود إلي الشركة في الإعلان الإلهي.
- ترتيب يعلن استمرار نعمة الله.

غفر الله لنا جميعاً

جورج حبيب بباوي.